الأجنبية[١]

أحبَّها ، وأحبَّته ، حتَّى ذهب بها في الحبِّ مذهباً قالت له فيه : « لو جاءني قلبي في صورةٍ بشريَّةٍ ؛ لأراه كما أحِسُّه ؛ لما اختار غيرَ صورتك أنت في رقَّتك ، وعطفِك ، وحنانِك » . وحتَّى ذهبت به في الحبِّ مذهباً قال لها فيه : « إنَّ الجنَّة لا تكون أبدعَ فنّاً ، ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثرَ إمتاعاً ـ لو خُلِقت امرأةً يهواها رجلٌ ـ إلا أن تكون هي أنت ! » فقالت له : « ويكون هو أنت . . . ! » .

وتدلَّهت[٢] فيه ، حتَّى كأنَّما خلبها عقلها ، ووضع لها عقلاً من هواه ، فكانت تقول له فيما تبثُّه من ذاتِ نفسها : « إنَّ حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها متبرئةً من أنَّها إرادة ، مقِرَّةً أنَّها مع الحبيب طاعةٌ مع أمرٍ ، مُذعِنةً أنَّها قد سلمت كبرياءَها لهذا الحبيب ، لتراه في قوته ذا كبرياءَين» .

وافتتن بها حتَّى أخذت منه كلَّ مأخذٍ ، فملأت نفسه بأشياء ، وملأت عينه من أشياء . فكان يقول لها في نجواه : « إنِّي أرى الزَّمن قد انتسخ ممَّا بيني ، وبينك ، فإنَّما نحن بالحبِّ في زمن من نفسينا العاشقتين ؛ لا يسمَّى الوقت ، ولكن يسمَّى السُّرور ؛ وإنَّما نعيش في أيامٍ قلبيَّةٍ ؛ لا تدلُّ على أوقاتها السَّاعةُ بدقائقها ، وثوانيها ؛ ولكنِ السَّعادةُ بحقائقها ، ولذَّاتها » .

وتحابَّا ذلك الحبَّ الفنيَّ العجيبَ ؛ الذي يكون ممتلئاً من الرُّوحين يكاد يَفيضُ ، وينسكب ، وهو مع ذلك لا يَبرَح يطلبُ الزِّيادة ، ليتخيَّل من لذَّتها ما يتخيَّلُ السِّكيرُ في نشوته ؛ إذا طَفحتِ الكأس ، فيرى بعينيه أنَّها ستتَّسع لأكثر ممَّا امتلأتْ به ، فيكون له بالكأس وزيادتها سُكرُ الخمرِ ، وسكرُ الوهم .

تحابَّا ذلك الحبَّ الفوَّارَ في الدَّم ، كأنَّ فيه من دَورته طبيعة الفراق والتَّلاقي بغير تلاقٍ ، ولا فراقٍ ، فيكونان معاً في مجلسهما الغَزَليِّ ، جنْبه إلى جنبها ، وفاها

(١) انظر « الرافعي العاشق » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .
(٢) « تدلهت » : تحيَّرت ، وذهب عقلها .

إلى فيه[١] وكأنَّما هربتْ ، ثمَّ أدركها ، وكأنَّما فرَّت ثمَّ أمسكها ، وبين القبلة والقبلة هِجرانٌ وصُلحٌ ، وبين اللَّفتة واللَّفتة غضبٌ ، ورضا !

وهذا ضرْبٌ من الحبِّ يكون في بعض الطَّبائع الشَّاذَّة المُسْرِفة ، الَّتي أفرطت عليها الحياة إفراطها . فيلفُّ الحيوانيَّة بالإنسانيَّة ، ويجعل الرَّجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها : لا تلتقي إلا لتتمازج ، ولا تتمازج إلا لتتَّحِد ، ولا تتَّحد إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك .

* * *

وضرَب الدَّهرُ من ضَرباته في أحداثٍ وأحداثٍ ؛ فأبغضتْه ، وأبغضها ، وفَسَدت ذاتُ بينهما ؛ وأدبر منها ما كان مُقبِلاً ، فوَثب كلاهما من وجود الآخر وَثْبة فزِعٍ هارباً على وجهه ؛ أمَّا هو ، فسَخِطها لعيوب نفسها ؛ وأمَّا هي . . . وأمَّا هي فتكرَّهتْه لمحاسنِ غيره !

وانسرَبتْ أيَّامُ ذلك الحبِّ في مَسارِبِها تحت الزَّمن العميق الَّذي طَوَى ولا يزال يَطوي ولا يبرَح بعد ذلك يطوي . كما يغور الماءُ في طباق الأرض ، فأصبح الرَّجل المسكين وقد نزلت تلك الأيَّام من نفسه منزلة أقارب ، وأصدقاء ، وأحِبَّاء ماتوا بعضهم وراء بعضٍ ، وتركوه ، ولكنَّهم لم يبرحوا فِكرَه ، فكانوا له مادَّة حسرةٍ ، ولهفةٍ ؛ أمَّا هي . . . أمَّا هي فانشقَّ الزَّمن في فكرها برجَّة زلزلةٍ ، وابتلع تلك الأيام ، ثمَّ التأم . . . !

* * *

فحدثنا « الدكتور محمَّد »[٢] رئيس جماعة الطَّلبة المصريِّين في مدينة . . . بفرنسا ، قال : وانتهى إليَّ أنَّ صاحبنا هذا جاء إلى المدينة ؛ وأنَّه قادمٌ من مصر ؛ فتخالجني[٣] الشَّوق إليه ، ونزعت إلى لقائه نفسي ، وما بيننا إلا معرفتي : أنَّه مصريٌّ قدِم من مصر ؛ وخُيِّل إليَّ في تلك السَّاعة ممَّا اهْتاجني من الحنين إلى بلادي

(١) تأويل هذا في باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين ، متعانقين . (ع) .

(٢) هو ولده الدكتور محمد الرافعي ، يدرس وقتئذ في جامعة ليون ، وقد أنشأ من أجله هذه القصة ؛ لتكون رسالةً إليه برأيه في موضوعٍ بخصوصه . (س) .

(٣) « تخالجني » : شغلني ، وتجاذبني .

العزيزة ، أن ليس بيني وبين مصر إلا شارعان أقطعُهما في دقائق ، فخففت إليه من أقرب الطُّرق إلى مثواه ، كما يصنع الطَّير إذا ترامى إلى عُشِّه ، فابتدرَه مِنْ قطْرِ الجوِّ .

قال : وأصبتُه واجماً[١] يعلوه الحزن ، فتعرَّفت إليه ، فما أسرع ما مَلأ من نفسي، وما ملأتُ من نفسه ؛ وكما يَمَّحي الزَّمان بين الحبيبَين ؛ إذا التقيا بعد فرْقةٍ، يتلاشى المكان بين أهل الوطن الواحد ؛ إذا تلاقوا في الغربة ؛ فذابت المدينة الكبيرة الَّتي نحن فيها ، كأنْ لم تكن شيئاً ، وتجلَّى سحر مصر في أقوى سَطوته ، وأشدِّها فأخذنا كِلَينا ، فما استشعرْنا ساعَتئِذٍ إلا أن أوربة العظيمة كأنَّما كانت مرسومةً على ورقةٍ ، فطويناها ، وأحللنا مصر في محلِّها .

وطغى علينا نازعُ الطَّرَبِ طغياناً شديداً ، فأرسلت من يجمع الإخوان المصريِّين ، واخترت لذلك صديقاً شاعر الفطرة ، فنزا به الطَّرب ؛ فكان يدعوهم ، وكأنَّه يؤذِّن فيهم لإقامة الصَّلاة . وجاؤوا يُهرْولون هروَلة الحجيج ، فلو نطقت الأرض الفرنسيَّة التي مَشوا عليها تلك المِشية ؛ لقالت : هذه وطأة أسودٍ تتخيَّل خُيلاءَها من بغي النَّشاط ، والقوَّة .

ألا ما أعظمَكِ يا مصر ! وما أعظم تعنُّتَكِ في هذا السِّحر الفاتن ! أينبغي أن يغترب كلُّ أهلك حتَّى يدركوا معنى ذلك الحديث النَّبويِّ العظيم : « مصر كِنانة الله في أرضه » . فيعرفوا أنَّك من عِزَّتك معلقةٌ في هذا الكون تعليق الكنانة في دار البطل الأرْوع ؟

قال « الدُّكتور محمَّد » : واجتمعنا في الدَّار ؛ التي أنزل فيها ، فراع ذلك صاحبة مَثواي[٢] ، فقلت لها : إنَّ هاهنا ليلةً مصريَّةً ستحتلُّ ليلتكم هذه في مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثمَّ دعوتها إلى مجلسنا ؛ لتشهد كيف تستعْلن الرُّوح المصريَّة الاجتماعيَّة برقَّتها ، وظرفِها ، وحماستها ، وكيف تفسِّر هذه الرُّوح المصريَّة كلَّ

(١) « واجماً » : هو الذي اشتدَّ حزنه حتى أمسك عن الكلام ، والعبوس المطرق لشدَّة الحزن .
(٢) « صاحبة المثوى » : هي رَبَّةُ البيت ؛ الذي ينزل فيه الضَّيف ومَنْ كان في حُكْمه . يقول العربي : مَنْ كانت صاحبةُ مثواك ؟ فَتُطلق على صاحبة البنسيون . (ع) .

جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنَّانة ، وكيف تكون هذه الرُّوح في جوٍّ موسيقيَّتها الطَّبيعيَّة ؛ حتَّى تُناجي أحبابَها . فيجيءُ حديثها بطبيعته كأنَّه ديباجة شاعرٍ في صفائها ، وحلاوتها ، ورنين ألفاظها ؟

وقالت السَّيِّدة الظَّريفة : يا لها سعادة ! سأتَّخذ زينتي ، وأصلح من شأني ، وأكون بعد خمس دقائق في مصر !

قال الدَّكتور : وأخذنا في شأننا ، وكان معنا طالبٌ حَسنُ الصَّوت ، فقام إلى البيانة[١] وغنَّى مقطوعةً « طقطوقة » مصريَّة من هذه المقاطيع الَّتي تطقطق فيها النَّفس ، فجعل يَمطلُ صوته بآه ، وآه ؛ ودارَ اللَّحنُ دورة تأوَّهت فيها الكلمات كلُّها ، ثمَّ اعْتورَ[٢] البيانة طالبٌ آخر ، فما شذَّ عن هذه السُّنَّة ، وكان بعد الأوَّل كالنَّائحة تجاوبُ النَّائحة ، فمالت عليَّ السَّيدة الفرنسيَّة ، وأسَرَّت إليَّ : أهاتان امرأتان ، أم رجلان . . . ؟ فقلت لها : إنَّ هذا لحنٌ تاريخيٌّ ذو مقطوعتين ، كانت تتَطارَحُه[٣] كليوباترة ، وأنطونيو ، وأنطونيو ، وكليوباترة . . . فأعجبت المرأة أشدَّ الإعجاب ، وأكبرت منَّا هذا الذَّوقَ المصري أن نكرمَها لوجودها في مجلسنا بألحان الملكة المصريَّة الجميلة ، وطرِبت لذلك أشدَّ الطَّرب ، ومَلكها غرور المرأة ، فجعلت تستعيد : « يا لوعتي ! يا شقايَ ! يا ضنى حالي . . ! » وتقول : ما كان أرقَّ كليوباترة ! ما كان أرقَّ أنطونيو ! يا لِفتنةِ الحبِّ الملكيِّ . . . !

قال « الدُّكتور محمَّد » : ثمَّ خجلتُ والله من هذا الكلام المخنَّث ، ومن تلفيقي الَّذي لفَّقتُه للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضت انتفاضةَ من يملؤه الغضب ؛ وقد حَمِيَ دمه ، وفي يده السَّيفُ الباتر ، وأمامه العدوُّ الوقح ، وثرتُ إلى البيانة ، فأجريت عليها أصابعي ، وكأن في يديَّ عشرةَ شياطين ، لا عشر أصابع ، ودوَّى في المكان لحنُ : « اسلمِي يا مصر !» ، وجَلْجَلَ كالرَّعد في قُبَّة الدُّنيا ، تحت طِباق الغَيم ، بين شرارِ البرق ، فكأنَّما تزَلزل المكان على السَّيدة الفرنسيَّة ، وعلينا

---

(١) « البيانة » : كلمة استعملناها في كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على : بيانات . (ع) .

(٢) « اعتور » : تداول .

(٣) « تتطارحه » : تطارح القومُ العلم وغيره : ألقى بعضهم مسائله على بعض .

جميعاً ، وصَرَخَ أجدادنا يزأرون من أعماق التَّاريخ : « اسلمي يا مصر . . ! »[١] .

ولمَّا قطعت ؛ التفتُّ إليها في كبرياء تلك الموسيقا ، وعظمتها ، وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبَّان المصريِّين .

ثمَّ راجعنا صاحبنا الضَّيف ، وأحفيْناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعَنَا طويلاً : إنَّه يُحسن شيئاً من الموسيقا ، وإنَّ له لحناً سيُطارحنا به ؛ لنأخذَه عنه ، فطِرنا بلحنه قبل أن نسمعه ، وقلنا له : افعل متفضِّلاً مشكوراً . وما زلنا حتَّى نهض متثاقِلاً ، فجلس إلى البيانة ، وأطرق شيئاً كأنَّهُ يُسوِّي أوتاراً في قلبه ، ثمَّ دقَّ يَتشاجى[٢] بهذا الصَّوت :

أضاعَ غَدِي مَن كان في يَدِه غدِي وحَطَّمني من كان يجهدُ في سَبكي !
فإن كنت لا آسى لنفسيْ فمَن إذاً ؟ وإن كنت لا أبكي لنفسي فمن يبكي[٣] ؟

قال « الدُّكتور محمَّد » : فكان الغناء يعتلِج[٤] في قلبه اعتلاجاً ؛ وكانت نفسُه تبكي فيه بكاءها ، وتغَصُّ من غُصَّتها ، وكأنَّ في الصَّوتِ فكراً حزيناً يَستَعْلن في همٍّ موسيقيٍّ ؛ وخيِّل إلينا بين ذلك : أنَّ البيانة انقلبت امرأةً مغنِّيَةً تطارحُ هذا الرَّجلُ عواطفها ، وأحزانها ، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوتٍ إنسانيٍّ ، وأجملُه ، وأشجاه ، وأرقُّه .

فأطفنا به ، وقلنا له : لقد كتمتَنا نفسك حتَّى نمَّ عليها ما سمعنا ، وما هذا بغناءٍ ، ولكنَّه همومٌ مُلحَّنةٌ تلحيناً ؛ فلن ندعَك ، أو تخبرَ ما كان شأنك ، وشأنها .

فاعْتلَّ علينا ، ودافعنَا جهدَه ، فقلنا له : هيهات ! والله ! لن نُفلتكَ وقد صرت في أيدينا ، وإنَّك ما تزيدُ على أن تعِظنا بهذه القصَّة ، فإن أمسكتَ عنها ؛ فقد أمسكتَ عن موعظتنا ؛ وإن بخلتَ ؛ فما بخلتَ بقصَّتك بل بعلمٍ من علم الحياة

---

(١) هذا هو النشيد الذي وضعناه على لسان سعد باشا زغلول ، وهذا اليوم النشيد الوطني لمصر كلها ، يحفظه جميع الطلبة ، والكشافة ، والأندية الرياضية ، وغيرها . (ع) .
قلت : وانظر « أغاني الشعب » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « يتشاجى » : يدَّعي الشجو ، ويتحازن .

(٣) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال ! (ع) .

(٤) « يعتلج » : يضطرب .

نفيده منك ؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا في اجتماع فاسدٍ كلُّه قِصصٌ قلبية ، بين نساءٍ لا يَلبسنَ إلا ما يُعرِّي جمالهنَّ ، وفي رجالٍ أفرطت عليهم الحرِّيَّة ، حتَّى دخل فيها مخدعُ الزَّوجة . . . !

قال الدُّكتور : ونظرتُ ؛ فإذا الرَّجل كاسِفٌ[1] ، قد تغيَّر لونه ، وتبيَّنَ الانكسار في وجهه ؛ فألمَمْت بما في نفسه ، وعلمتُ : أنَّه قد دُهِيَ في زوجةٍ من هؤلاء الأوربيَّات ، اللَّواتي يتزوَّجن على أن يكون مخدع المرأة منهنَّ حرّاً أن يأخذ ، ويدَع ، ويُغيِّر ، ويَقسمَ كلمة « زوج » قسمين ، وثلاثةً ، وأربعةً ، وما شاء . .

وكأنَّما مَسَسْتُ البارودَ بتلك الشَّرارة ، فانفجرت نفسُ الرَّجل عن قصَّةٍ ما أفظعها !

* * *

قالَ : يا إخواني المصريِّين ، قبل أن أنْفُضَ لكم ذلك الخبر ، أسديكم هذه النَّصيحةَ ؛ الَّتي لم يَضعها مؤلفٌ تاريخيٌّ لسوء الحظِّ ، إلا في الفصل الأخير من رواية شقائي :

إيَّاكم ! إيَّاكم ! أن تغترُّوا بمعاني المرأة ، تحسبونها معانيَ الزَّوجة ؛ وفرِّقوا بين الزَّوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ، فإنَّ كلَّ زوجةٍ امرأة ، ولكن ليس في كل امرأةٍ زوجة .

واعلموا : أنَّ المرأة في أنوثتها ، وفنونها النِّسائية الفردية كهذا السَّحاب الملوَّن في الشَّفق حين يبدو ، له وقتٌ محدودٌ ، ثمَّ يُمسخ مَسخاً ؛ ولكنَّ الزَّوجة في نسائيَّتها الاجتماعيَّة كالشَّمس : قد يحجبها ذلك السَّحاب ، بَيْدَ أنَّ البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقتُ كلُّه .

لا تتزوَّجوا يا إخواني المصريِّين بأجنبيَّةٍ : **إنَّ أجنبيَّةً يتزوَّجُ بها مصريٌّ ، هي مُسدَّسُ جرائمَ فيه سِتُّ قذائفُ** :

الأولى : بَوارُ امرأةٍ مصريَّةٍ ، وضياعُها بضَياع حقِّها في هذا الزَّوج ؛ وتلك جريمةٌ وطنيَّةٌ . فهذه واحدةٌ .

---

(١) « كاسف » : كسف الوجه : اصفرَّ ، وتغيَّر .

والثَّانية : إقحام الأخلاق الأجنبيَّة عن طباعنا ، وفضائلنا في هذا الاجتماع الشَّرقيِّ ، وتوهينه بها ، وصَدْعه ، وهي جريمةٌ أخلاقيةٌ .

والثَّالثة : دَسُّ العروق الزَّائفة في دمائنا ، ونسلِنا ، وهي جريمةٌ اجتماعيَّةٌ .

والرَّابعة : التمكينُ للأجنبيِّ في بيتٍ من بيوتنا يملكه ، ويحكمه ، ويُصرِّفه على ما شاء ؛ وهي جريمةٌ سياسيَّةٌ .

والخامسة : للمُسلم مِنَّا إيثارُه غير أخته المسلمة ، ثمَّ تحكيمُه الهوى في الدِّين ، ما يعجبُه وما لا يعجبه ، ثمَّ إلقاؤه السُّمَّ الدِّيني في نبع ذرِّيتِه المقبلة ، ثمَّ صيرورتُه خِزياً لأجداده الفاتحين الَّذين كانوا يأخذونهنَّ سَبايا ، ويجعلونهنَّ في المنزلة الثَّانية ، أو الثَّالثة بعد الزَّوجة ، فأخذته هي رقيقاً لها ، وصار معها في المنزلة الثَّانية ، أو الثَّالثة بعد . . . (١) ، وهذه جريمةٌ دينيَّةٌ .

والسَّادسة : بعد ذلك كلِّه : أنَّ هذا المسكينُ يؤثر أسفله على أعلاه . . ولا يُبالي في ذلك خمسَ جرائم فظيعةٍ ؛ وهذه السَّادسة جريمة إنسانيَّةٌ !

* * *

ما كنتُ أحسب يا إخواني ! وقد رجعتُ بزوجتي الأوربيَّة إلى مصر أنِّي أحضرتُ معي من أوربة آلةً تصنع أحزاني ، ومصائبي ! ولم يكن وعَظني أحدٌ بما أعِظُكم به الآن ، ولا تنبَّهتُ بذكائي إلى أنَّ الزَّوجة الأجنبيَّة تثبتُ لي غُربتي في بلادي ، وتُثبت عليَّ أنِّي غيرُ وطنيٍّ ، أو غيرُ تامِّ الوطنيَّة ، ثمَّ تكون منِّي حماقةٌ تثبت للنَّاس أنِّي أحمق فيما اخترت ؛ ثم تعودُ مشكلةً دوليَّةً في بيتي ، يزورها أبناء جنسها ، ويستَزِيرونها رغم أنفي ، وفمي ، ووجهي كلِّه ! ويستطيلون بالحماية ، ويستترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصلٍ ، ويرخون ستاراً على فصلٍ . . . وأنا وحدي أشهدُ الرِّواية . . . !

إنَّ الشَّيطانَ في أوربة شيطانٌ عالمٌ مخترعٌ . فقد زَيَّن لي من تلك الزَّوجة ثلاث نساءٍ معاً : زوجةً عقليَّةً ، وزوجةً قلبيَّةً ، وزوجةً نفسيَّةً ، ثمَّ نفثَ اللَّعين في رُوعي (٢) : أنَّ المرأة الشَّرقيَّة ليس فيها إلا واحدةٌ ، وهي مع ذلك ليست من هؤلاء

---

(١) يريد : بعد عشيقها . (ع) .

(٢) « روعي » : الرُّوع : القلب ، أو موضع الفزع منه .

الثّلاث ، ولا واحدةً . قال الخبيث : لأنّها زوجة الجسم وحده ، فلا تسمو إلى العقل ، ولا تتّصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنّفس ؛ وأنّها بذلك جاهلةٌ ، غليظة الحسّ ، خَشنة الطّبع ، لا تكون مع المصريّ إلا كما تكون الأرض المصريّة مع فلاحها . . .

لعنة الله على ذلك الشّيطان الرّجيم العالم المخترع ! ما علمت إلاّ مِنْ بَعد : أنّ هذه الشّرقيّة ، الجاهلة ، الخشنة ، الجافية هي كالمنْجَم الّذي تِبْرهُ في ترابه ، وماسُه في فحمِه ، وجوهرُه في معدنه ، وأنّ صعوبتها من صعوبة العفّة الممتنعة ، وأنّ خشونتها من خشونة الحبّ المعتز بنفسه ، وأنّ جفاءَها من جفاء الدِّين المتسامي على المادّة ؛ وأنّها بمجموع ذلك كان لها الصّبر الذي لا يدخله العجز ، وكان لها الوفاء ؛ الّذي لا تلحقه الشُّبهة ، وكان لها الإيثار ؛ الّذي لا يُفسده الطّمع .

هي جاهلةٌ ، ولها عقل الحياة في دارها ؛ وغليظة الحسّ ، ولها أرقّ ما في الزّوجة لزوجها وحدَه ؛ وخشنَةُ الطّبع ، لأنّها تتنزّه أن تكون مَلمساً ناعماً لهذا ، وذاك ، وهؤلاء ، وأولئك . . . لا كامرأة الحبّ الأوربيّة ، الّتي تجعل نفسها أنثى الفنّ ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشّرقيّ من التّفضيل ، والإيثار ، والإجلال ، والإباحة ؛ في كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . . امرأة أنشأتها الحرب العظمى بأخلاقٍ مُخرِّبةٍ مُدمِّرةٍ ، تنفجر بين الوقت والوقت .

عندنا ـ يا إخواني ـ تعدُّد الزّوجات ، يتّهموننا به من عمى ، وجهلٍ ، وسخافةٍ . انظروا ، هل هو إلا إعْلان لشرعيّة الرُّجولة ، والأنوثة ، ودينيّة الحياة الزّوجية في أيّ أشكالها ؟ وهل هو إلا إعلان بطولة الرّجل الشرقيّ الأنوف الغيور ، أنّ الزّوجة تتعدّد عند الرّجل ، ولكن . . . ولكن ليس كما يقع في أوربّة من أنّ الزّوج يتعدّد عند المرأة . . .

يتّهموننا بتعدُّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقها ، وواجباتها ـ بقوّة الشّرع ، والقانون ـ نافذةٌ مُؤدّاةٌ ؛ ثمّ لا يتّهمون أنفسهم بتعدُّد المرأة خليلةً مخادِنةً ليس لها حقٌّ على أحدٍ ، ولا واجبٌ من أحدٍ ، بل هي تتقاذفها الحياة من رجُلٍ إلى رجلٍ ، كالسكّير يتقاذفه الشّارع من جِدارٍ إلى جدارٍ !

لعنة الله على شيطان المدنيّة العالم ، المخترع ، المخنّث ؛ الّذي يجعل للمرأة

الأوربِّية بعد أن يتزوَّجها الرَّجل الشَّرقيُّ ، أصابع « أوتوماتيكيةً » ، ما أسرع ما تمتدُّ في نَزوَة من محاقاتها[١] إلى رجلها بالمسدَّس ، فإذا الرَّصاص ، والقتل ، وما أسرع ما تمتدُّ في نزوةٍ من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدَّار ، فإذا الخيانة ، والعُهر !

ماذا تتوقَّعون ـ يا إخواني ـ من تلك الرَّقيقة النَّاعمة ، المتأنِّثة بكلِّ ما فيها أنوثةً تكفي رجالاً لا رجلاً واحداً ، وقد ضعُفت روحيَّة الأسرة في رأيها ، وابتذلت الزُّوجيَّة في مجتمَعها ابتذالاً ، فأصبح عندها الزَّواج للزَّواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأةً واحدةً لرجلٍ واحدٍ مقصورةً عليه ؛ وبذلك عاد الزَّواج حقّاً في جسم المرأة دون قلبها ، وروحها ؛ فإن كان الزَّوج مشؤوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رجُلَ قلبها ـ فعليه أن يَدَع لها الحرِّيَّة لتختار زوج قلبها . . . ! ومعنى ذلك أَن تكون هذه المرأة مع الزَّوج الشَّرعيِّ بمنزلة المرأة مع فاسقٍ ؛ ومع فاسقٍ بمنزلة المرأة مع الزَّوج الشَّرعيِّ . . ! وإن كان الرَّجل منحوساً مخيِّباً ، وكان قد بلغ إلى قلبها زمناً ثمَّ ملَّه قلبها ، فعليه أن يدَع لها الحرِّيَّة لتتنقل ، وتلذَّ بلذَّات الهوى ، ويقول لها : شأنكِ بمن أحببتِ ! فإنَّ هذا المنحوس المخيب ليس عندها إنساناً ، ولكنَّه روايةٌ إنسانيَّةٌ انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخر بحوادث غير تلك . فلمنْ يشهد الرِّواية أن يتبرَّمَ ما شاء ، ويستثقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . !

اْمرأة هذه المدنيَّة هي اْمرأة العاطفة : تتعلَّق باللَّفظ حين تُلْبِسُه العاطفة من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل ، وإن فاتت به النِّعمة الكبيرة من نِعَم الحياة .

تقوى العاطفةُ ، فتجيء بها إلى رجلٍ ، ثمَّ تقوى الثَّانيةُ ، فتذهب بها مع رجلٍ آخر . . . ! وتقيِّد نفسها إن شاءت ، وتسرِّح نفسها إن شاءت ؛ وما بُدٌّ من أن تبلوَ الحياة كما يبلوها الرَّجل ، وأن تخوضَ في مشاكلها ؛ وإذا شاءت ؛ جعلت نفسَها إحدى مشاكِلها . . . ! ولا مندوحة من أن تتولَّى شأنَ نفسها بنفسها ، فإذا خاسَتْ ، أو غدَرتْ فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأيٌ وحقٌّ ؛ إذ كان

(١) « محاقاتها » : نقائصها .

مِحْوَرُها الَّذي تدور عليه هو عاطفتَها ، وحرِّيَّةَ هذه العاطفة ، فمَنْ هذا يُقرِّرُ لها خطَّتها ، ويُملي عليها واجباتها ، ويُزوِّر لها الأسماء على إرادته دون إرادتها ، فيسمِّي لها نكدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتها باسم واجب الزَّوجة الشَّريفة ؟

ومن ذا خَوَّله الحقَّ أن يقرِّر ، وأن يُملي ؟

وهذا الشَّرقيُّ العتيق المأفون[1] الذي قَبِلَها سافرةً لا تعرف رُوحُها ، ولا جسمُها الحجاب ، ما باله يريد أن يضربَ الحجابَ على عاطفتها ، ويتركها محبوسةً في شَرَفِه ، وحقوقه ، وواجباته ، وإن لم تكن محجوبةً في الدَّار ؟

ما علمتُ يا إخواني ! إلا من بَعدُ : أنَّ الزَّوجة الغربيَّة قد تكون مع زوجها الشَّرقيِّ كالسائحة مع دليلها ! هيهات ! هيهات ! إنَّه لن يُمسكها عليه ، ولن يُكرهها على الوفاء له ، إلا أن تكون حُثالةً يزهد فيها حتى ذبابُ النَّاس ؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكينَ مطمَعَها ، وهي مع ذلك لو خلطته بنفسها ؛ لبقيت منها ناحيةٌ لا تختلط ؛ إذ ترى أمَّتَه دون أمَّتها ، وجنسه دون جنسها ؛ فما تسُبُّ أمَّةَ زوجِها وبلادَه بأقبَحَ من هذا !

أما والله ! إنَّ الرَّجل الشَّرقيَّ حين يأتي بالأجنبيَّة لتلوين حياته بألوان الأنثى . . . لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائبِ حياته ، وقد يكون هناك ما يَشذُّ ، ولكن هذه هي القاعدة .

* * *

أمَّا قِصَّتي يا إخواني ! . . . .

قال الدُّكتور محمَّد : قد حكيتَها ، يرحمك الله ! .

* * *

---

(١) « المأفون » : ضعيف الرأي ، وفاسد العقل .